تفسير محمد عبده للطير الأبابيل
وصلته بمؤلف كتاب الفن القصصي
عرض وتحليل

الأستاذ الدكتور/أنور إبراهيم منصور
أستاذ بكلية أصول الدين بطنطا جامعة الازهر
وكلية الاداب جامعة البحرين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فقد احتل الأستاذ الإمام محمد عبده مكانة مرموقة في الفكر الإسلامي بما أحدثه من ثورة علمية ومعرفية ضد قيود الوهم والخرافة والتقليد التي سيطرت على العقل، فهو يعد مدرسة شامخة في الإصلاح والتجديد.

قال أحد من كتبوا عنه: تتلخص رسالة حياته في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.(١)

ولقد انفرد رحمه الله في تفسيره بآراء خاصة لم يسبق إليها ولم يقل بها أحد من أئمة التفسير من قبله.

والخروج عن المألوف في البحث العلمي لا يعد مدحاً لصاحبه ولا قدحاً فيه إلا بعد الوقوف على قيمة ما جاء به من قول.

فلا يعاب باحث خرج على الناس من خلال بحثه برأي جديد مادام رأيه هذا قد بني على قواعد واضحة وبراهين مؤيدة ولم يصادم في ذلك نقلا صحيحا ولا عقلا سليما.

---

(١) الأعلام للزر كلي - (ج ٦ / ص ٢٥٢) ط دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠

أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك؛ فلا قيمة للقول مهما كانت درجة صاحبه من الشهرة وذيوع الصيت؛ إذ الحق لا يعرف بالرجال وإنما يعرف الرجال بالحق.

ونستطيع الوقوف على موقف الأستاذ الإمام من القصص من زاويتين كل زاوية تمثل مبحثا مستقلا على النحو التالي:

المبحث الأول: تفسير الأستاذ الإمام للمراد من الطير الأبابيل في سورة الفيل.

وتحته مطالب.

المبحث الثاني: الصلة بين فكر الأستاذ الإمام وصاحب الفن القصصي في القرآن.

وتحته مطالب

ثم كانت نهاية المطاف بالخاتمة المتضمنة أبرز النتائج التي توصلت إليها.

وقد سار البحث على المنهجين الوصفي والنقدي، ملتزماً فيه بالقواعد العلمية المتعارف عليها من عزو للآيات القرآنية، وتخريج للأحاديث النبوية، ونسبة كل قول لقائله وغير ذلك..

والله يعلم قصدي ونيتي، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يبيض به وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١)

(١) البقرة: ٨٦.

المبحث الثاني: تفسير الأستاذ الإمام للمراد من الطير الأبابيل.

وتحته المطالب الآتية:

المطلب الأول: تفسير الأستاذ الإمام للقصة

المطلب الثاني: أثر مقولة الأستاذ الإمام.

المطلب الثالث: حقيقة الهلاك:

المطلب الرابع: تواتر القصة

من جملة ما انفرد به الأستاذ الإمام رحمه الله من آراء ما نُقل عنه في تفسيره لسورة الفيل؛ إذ ذهب ــ رحمه الله ــ إلى أن الطير الأبابيل التي أرسلها الله ــ سبحانه وتعالى ــ على جيش الأحباش في حادثة الفيل كانت عبارة عن جماعات البعوض والذباب التي تحمل جراثيم مرض الحصبة أو مرض الجدري، وأنها ليست على ما يرويه المؤرخون والمفسرون، وسأتناول رأيه بالعرض والتحليل وبيان الوجه الصحيح من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: تفسير الأستاذ الإمام للقصة

قال الأستاذ الإمام محمد عبده في تأويله لقصة أصحاب الفيل:

ما تواتر من الواقعة هو أن قائداً حبشياً ــ ممن كانوا قد غلبوا على اليمن ــ أراد أن يعتدي على الكعبة المشرفة ويهدمها ليمنع العرب من الحج إليها أو ليقهرهم ويذلهم، فتوجه بجيش جرار إلى مكة لذلك، واستصحب معه فيلاً أو فيلة كثيرة زيادة في الإرهاب وحشر الخوف إلى القلوب، ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه حتى وصل إلى المغمس بالقرب من مكة، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت ففزعوا منه وانطلقوا إلى شعف الجبال ينتظرون ما هو فاعل.

وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة. قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام، وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الجيش ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات.

هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به، وقد بينت لنا السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها..

ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها.. فلله جند من كل شيء.

وفي كل شيء له آية... تدل على أنه الواحد

وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه، قبل أن يدخل مكة. وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظاً لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه ﷺ وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترحه، ولا ذنب اقترفه.

هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته.

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر. لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر!!.[١]

هذا ما قاله الأستاذ الإمام رحمه الله، وهو كلام انفرد به رحمه الله.

المطلب الثاني: أثر مقولة الأستاذ الإمام.

كان لهذه المقولة أثر ذائع في البيئة الثقافية آنئذ، فانقسم الناس حولها ما بين مؤيد متابع، وما بين معارض ناقد.

ومن أبرز من تابع الإمام على رأيه الأستاذ عباس العقاد إذ كتب مقالاً في صدر أحد أعداد مجلة الرسالة عن الصلة بين القرآن والنظريات العلمية قسم المجتهدين المحدثين الباحثين عن التوفيق بين القرآن والكشوف العملية إلى فريقين: فريق حاول تفسير القرآن بناء على النظريات العلمية التي لا تزال محل نظر واجتهاد وهذه محاولات غير مأمونة العاقبة، وفريق آخر وفق بين العلم والقرآن بطريقة معقولة مقبولة، وضرب المثال بفعل الأستاذ الإمام فقال:

وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التي تسمى بالميكروبات، فالميكروبات موجودة لا شك فيها والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجربة لا تقبل الجدال، فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام أن هزيمة أصحاب الفيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح، ولكنه غير مأمون على الجزم والتوكيد؛ لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غدا عن حجارة من سجيل أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف مأكول. [٢]

فسياق كلام الأستاذ العقاد يدل على قبوله هذا التفسير على سبيل الجواز والترجيح.

---

[١] **تفسير سورة الفاتحة وجزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١٥٥-١٥٦ ط الهيئة العامة لقصور الثقافة تقديم د/ مصطفي لبيب عبد الغنى سنة ٢٠٠٧م**

[٢] مجلة الرسالة. أحمد حسن الزيات **ص ١١٦٩ وما بعدها.** العدد رقم ٧٤٩ لسنة ١٩٤٧م السنة الخامسة عشرة.

وفي موضع آخر يعلن الأستاذ العقاد تبعيته المطلقة لهذا المسلك من التفسير، بل ويعضد ذلك بالدليل.

ففي ثنايا حديثه عن خصال عبد المطلب جد النبي ﷺ فيما عرف لديه بـــ " المطلبية "، في أثناء ذلك تطرق إلى قصة أبرهة عندما قدم لهدم الكعبة قائلا:

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك فيه، وهو قتل الجدري بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت وخوفه من أن يتقدم إليه بأذى، وإنه لخبر قد يسهل إنكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله في الإنكار لولا أن حديث الجدري الذى فشا في سنة ٥٦٩ م كتب في تاريخ بروكوب procope الوزير البيزنطي المعروف. (١)

فلئن كان الأستاذ الإمام قد بني كلامه على آثار نقلية واجتهادات عقلية فإن الأستاذ العقاد قد زاد الأمر توثيقا وتأكيدا بشواهد علمية وتاريخية.

ويبدو أن الفكرة باتت " مسلمة لاشية فيها " لدرجة أن بعض الباحثين المحدثين كانوا يسوقونها على هذا الأساس، ومن هؤلاء الدكتور هيكل في كتابه " حياة محمد " ﷺ إذ قال في عبارة واضحة:

كان وباء الجدري قد تفشى بالجيش وبدأ يفتك به، وكان فتكه ذريعاً لم يعهد من قبل قط، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ومات منهم من مات، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب (٢) هذا عن الموافقين.

أما عن المخالفين لرأى الأستاذ الإمام فهم من الكثرة بمكان، تمثلت في جمهرة المفسرين قديما وحديثاً.

ولنتأمل هنا في كلام الأستاذ الإمام وما كتب عنه من خلال الصفحات التالية

---

(١) طوالع البعثة المحمدية أو مطلع النور ص ٣٢٨ ط الأولى ١٩٧٤م ط دار الكتاب اللبناني المجلد السابع الإسلاميات من المجموعة الكاملة

(٢) حياة محمد د/ محمد حسن هيكل ص ٩٧ ط خاصة بمكتبة الأسرة ١٩٩٧م

المطلب الثالث: حقيقة الهلاك:

أشار الأستاذ الإمام في كلامه إلى أن السورة الكريمة بينت أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

ونحن [١] نرجع إلى السورة فلا نراها تبين شيئاً أو تقول شيئاً عن الجدري أو الحصبة. لم تعرض السورة لشيء من ذلك.

ونتساءل عن حقيقة الهلاك بالحجارة: هل كان بتلك الحجارة ذاتها ومن غير توسيط شيء آخر كما يهلك إنسان بصخرة تقع عليه أو بطعنة رمح تنفذ منه في مقتل؟ أو أن الرمي بتلك الحجارة كان ينشأ عنه مرض فتاك يكون بسببه الهلاك؟ ثم ما هي حقيقة تلك الحجارة؟

الذي قاله المفسرون والمؤرخون أن هذه الحجارة كانت قطعاً صغيرة من طين يابس شديد صلب، وذلك هو معنى السجيل، فهي من طبيعة الطين، وليست من طبيعة أحجار الجبال، وقد عبر عنها بحجارة نظراً إلى يبسها وشدتها وصلابتها.

هذا ما تشهد به اللغة في معنى السجيل، وهو ما تدل عليه آيات قرآنية تحدثت عما رمى به قوم " لوط " عليه السلام من مثل ذلك، مما كان به هلاكهم كذلك: قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [٢] وقال سبحانه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾[٣]

---

(١) الكلام لفضيلة الشيخ المرحوم عبد الرحمن تاج (الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية لأبى بكر عبد الرازق ط ص ٨٦ المكتب الثقافي للنشر والتوزيع بالقاهرة ط الأولى ١٩٩٠م، نقلا عن مجلة مجمع اللغة العربية الجزء التاسع والعشرون صفر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م)

(٢) [هود/٨٢]

(٣) [الحجر/٧٣-٧٥]

وفي سورة ثالثة بيان عن تلك الحجارة التي رمى بها قوم لوط أنها من الطين، ذلك هو قوله تعالى﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ [1]

ألا يعد تفسير الأستاذ الإمام للطير الأبابيل في هذا الموضع على النحو المذكور صرفاً للألفاظ عن ظواهرها المرادة إلى معان أخرى !؟

المطلب الرابع: تواتر القصة

نلحظ هنا أن الأستاذ الإمام قد ردد عبارات: التواتر، والمتواتر، وما اتفقت عليه الروايات، وقال: هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته.

ونحن نقول [2]: إن حادثة مرض الجدري أو الحصبة وفشوه في الجيش لم تتفق عليها الروايات، ولم تثبت بالضرورة ثبوت التواتر، فإن كثيراً من أعلام المؤرخين [3] لم يذكروا شيئاً عن أن مرض الجدري أو الحصبة قد عم الجيش وفشا فيه، بل إنهم لم يذكروا شيئاً أصلا عن إصابة الجيش بهذا المرض، ومن ذكر من هؤلاء شيئاً عن مرض الجدري أو الحصبة لم يذكر أنه أصيب به أحد غير أبرهة.

إنه بعيد جداً أن تكون إصابة الجيش الحبشي بمرض الجدري هكذا إصابة عامة وبائية ثم يسكت عنها ويغفل أمرها أولئك العلماء! إذ أنها تكون جديرة أن يروى أخبارها كل معنى بحفظ الأحداث التاريخية العظيمة، ولاسيما حادثة كحادثة الفيل.

---

[1] **[الذاريات/٣١-٣٣]**

[2] **راجع: الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ص ٨٤.**

[3] **من هؤلاء العلامة القسطلاني في المواهب اللدنية، والإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني في شرح المواهب، وابن كثير في البداية والنهاية.**

رواية عكرمة:

يستند الأستاذ الإمام في رأيه على رواية منسوبة إلى عكرمة رضي الله عنه تفيد فشو الجدري في بلاد العرب وقتئذ.

وهذه الرواية ليست محل اتفاق بين المؤرخين وأرباب السير، حتى إن رجلاً كابن الأثير وهو من المعنيين بأحداث التاريخ في كتابه الكامل ذكرها بصيغة التضعيف [١]

فأين هي من دعوى التواتر أو دعوى اتفاق الروايات التي صدر بها الأستاذ الإمام رحمه الله كلامه!؟ وعلى فرض صحتها فهي لا تدل على إصابة الجيش كله بالجدري!

وختاما نسجل أن كلامنا هذا ليس بقادح في الأستاذ الإمام ولا في قيمته العلمية، وندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة سعيها إلى تضييق الغيبيات في تفسير القرآن الكريم ومحاولتهم ربطها بالمألوف من السنن الكونية، وذلك في سبيل مواجهة النزعات الخرافية التي كانت تسيطر على العقل، والذهاب إلى الأساطير والإسرائيليات واللجوء إليها

ونقول: لا مانع من أن يكون جيش أبرهة قد وقعت فيه الإصابة بالجدري، ونفترض أن هذا المرض قد عم أفراد الجيش وتفشى فيهم وأنه كان أثراً لما رماهم به الطير الذى أرسله الله عليهم.

لكن يجب أن يكون ذلك كله على أساس أن تكون ألفاظ الطير والرمي والحجارة الواردة في السورة مأخوذة في معناها الظاهر الذي يتبادر إلى الذهن من تلك الألفاظ.

وهذا ما اتفق عليه جميع المفسرين والمؤرخين، وهو أيضاً ما روى عن عكرمة الذي يستند إلى روايته المرحوم الشيخ محمد عبده.[٢]

---

[١] **الكامل في التاريخ. عز الدين ابن الأثير ص ٤٠٢ وما بعدها، ط دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م**

[٢] **الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ص ٨٤.**

المبحث الثاني: صلة الأستاذ الإمام بمؤلف كتاب الفن القصصي في القرآن:

وتحته عدة مطالب:

المطلب الأول: القصص القرآني والوقائع التاريخية :

المطلب الثاني: القصص التمثيلي.

المطلب الثالث: الالتزام بالصدق والحمل على الاعتقاد بالجزئيات

لا تعنى إشادة القرآن بالعقل وإعلائه من شأنه أن يتجرد صاحبه من كل قيد ديني وينطلق ليقرر ما شاء وقت ما يشاء، وذلك بحجة حرية العقل والفكر! هذه ليست حرية، بل جاهلية؛ فالعقل والنقل صنوان لا يفترقان، ولا حرية لعقل يعارض النقل الصحيح أو النص الصريح.

في سنة ١٩٤٧م تقدم الأستاذ محمد أحمد خلف الله [١]المعيد بكلية فؤاد الأول (القاهرة حالياً) برسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه موضعها: الفن القصصي في القرآن [٢]، وقد أعدها بإشراف الأستاذ أمين الخولي، وقد تعلق الباحث بروايات ونصوص تؤيد دعواه وما ذهب إليه من فكر بتراث الأستاذ الإمام محمد عبده، وكان كثير الاستشهاد به في ردوده على منتقديه.

---

(١)أرسل الدكتور محمد خلف الله احمد رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية في هذا الوقت توضيحاً لمجلة الرسالة قال فيه : إن محمد أفندي أحمد خلف الله المعيد بكلية آداب القاهرة وصاحب بحث الفن القصصي في القرآن الذي تناولته الرسالة بالنقد والتفنيد شخص آخر غير محمد خلف الله أحمد أستاذ الأدب العربي بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية وخريج دار العلوم وجامعة لندن وصاحب الكتب والبحوث المعروفة في الدراسات النفسية والأدبية والنقدية، إن هذا التشابه في الاسمين قد اضطرني أن أنبه إليه مراراً في الصحف اليومية في مناسبات سابقة، ولكنى في الموقف الحاضر يوشك أن يشوه بعض ما يعرف القراء عنى من التزام لجادة الحق والعلم والدين في كتبي ومقالاتي. (الرسالة العدد رقم ٧٤٦السنة الخامسة عشرة ١٩٤٧م ص ١١٦٤/١١٦٥)

[٢] طبعتها مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٦٥م، وكانت قد طبعت من قبل عام ١٩٥٣م ثم عام ١٩٥٧م.

وقد دفعني كثرة اعتماد خلف الله في كلامه على نقول نسبها إلى الأستاذ الإمام إلى البحث عن صلة الأستاذ الإمام محمد عبده بفكر خلف الله، أو بعبارة أخرى البحث عن إجابة لهذا التساؤل: ما مدى صحة ما نسبه خلف الله إلى الأستاذ الإمام؟

ولتجلية وجه الحق في هذا الأمر، ولبيان مدى صدق خلف الله في ادعائه رأيت أن يدور الكلام في المطالب الآتية:

المطلب الأول: القصص القرآني والوقائع التاريخية:

صرح الأستاذ الإمام أكثر من مرة أن من الخطأ البين الاعتقاد بأن القصص القرآن قصد به التاريخ وسرد الوقائع مرتبة حسب وقوعها، وأن هذا المعنى لم يكن غرض القصة في القرآن ولا من مقاصدها، إنما سيقت القصة لأجل العظة والعبرة والتأثير في النفوس والأخذ بمجامع القلوب.

أكد الأستاذ الإمام على هذا المعنى في كثير من المواضع ومنها قوله:

القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً، ويهز النفس للاعتبار هزاً [١]

وقوله وهو بصدد الرد على أعداء القرآن الذين يأخذون عليه عدم الترتيب فيما يورده من قصصه عن الأنبياء والأمم:

لم يقصد ــ يعنى القرآن ــ بها ــ أي بقصصه ــ التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها؛ وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقي من جهتها، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير [٢]

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار للأستاذ الإمام محمد عبده **٣٤٦/١،ط:** دار المنار ط الثانية ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م

[٢] **المرجع السابق ٣٢٧/١**

وأبان الإمام أن المقصود الأعظم من القصص العظة والاعتبار لا التاريخ والزمن، واعتبر مجيء القصص في القرآن على هذا النمط ضربا من وجوه الإعجاز العلمي فقال:

أكد الباحثون في التاريخ أنه سيأتي أيام يستجيب فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين.

وقالوا: إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار، بل ربما يصدر عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه، فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان.[١]

وقال في سياق حديثه عن صلة القصص القرآني بقصص أهل الكتاب:

يظن كثير من الناس الآن ــ كما ظن كثير ممن قبلهم ــ أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة، وليس القرآن تاريخا ولا قصصا وإنما هو هداية وموعظة، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٢]، وبيان سنن الاجتماع كما في قوله " ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣]

---

[١] السابق ٣٢٧/١

[٢] [يوسف/١١١]

[٣] [آل عمران/١٣٧]

ويعرض الأستاذ الإمام المسألة في صورة شبهة ويجيب عنها في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [1] فيقول :

إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص، ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكر هنا بعد تلك الوقائع.

والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم المتصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتقي من جهتها.[2]

فخلاصة ما ذهب إليه الأستاذ الإمام أن القصص القرآني لا علاقة له بالتاريخ ولا بترتيب الوقائع فليس هذا مقصوده؛ إنما هو للعبرة والعظة وتحريك القلوب، وذلك حتى نرد عادية الأعداء في ادعائهم مخالفة القرآن للوقائع التاريخية، ومخالفته لما ورد في كتب أهل الكتاب.

ومن ثم يتضح لنا السبب الدافع لهذا القول، وهو يتطابق إلى حد كبير بما علل به خلف الله ما ذهب إليه في قصص القرآن.

---

[1] [البقرة/٦٠]

[2] تفسير المنار ٣٢٧/١ وللمزيد ٣٤٦/١-٣٥١، ٢٠٥/٢

المطلب الثاني: القصص التمثيلي.

مما يجب ذكره في موقف الإمام من قصص القرآن: تأويله لبعض القصص وصرفه عن حقيقته، وتفسيره على طريقة التمثيل.

ففي تفسيره لقصة آدم في الجنة التي تحدثت عنها الآيات في قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] يقول الأستاذ الإمام :

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: إن القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[2]

فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهى تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا، ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [3] والمعنى في التمثيل ظاهر.

ثم قال وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى

---

[1] **البقرة: ٣٥**

[2] **[ق/٣٠]**

[3] **[فصلت/١١]**

استعداداً في العلم والعمل لا حد لهما هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى.

هذا ملخص ما تقدم في سابق آيات القصة.

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم، فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموع في ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل كما قال تعالى في سورة طه ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [1]، ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال : كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب، وكان من قريش كذا يعنى القبيلة التي أبوها قريش، وفي كلام العرب كثير من هذا.

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت بكلمة التوحيد، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة

[1] [طه/١١٨، ١١٩]

وفسرت بكلمة الكفر [١]، وفي الحديث تشبيه المؤمن بالنخلة [٢]، ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين، فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان: أمر تكوين، وأمر تكليف.

والمعنى على هذا أن الله تعالى كون النوع البشرى على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال فيها سبحانه﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٣] فأولها طور الطفولية وهى لا هم فيها ولا كدر وإنما هي لعب ولهو كأن الطفل دائما في جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار جارية الأنهار متناغية الأطيار، وهذا معنى " اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين أي أنه تعالى خلق البشر ذكورا وإناثا هكذا، وأمرهما بالأكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير، والنهى عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وأن الفطرة تهدى إلى قبحه ووجوب اجتنابه وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى " وهديناه النجدين " ووسوسة الشيطان وإزلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية فتقوى فيها داعية الشر، أى أن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل، ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه، والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن حد الاعتدال، وأما تلقى آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في

---

[١] إشارة إلى قوله تعالى ألَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم ٢٤/٢٥-٢٧]

[٢] إشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن مثل النخلة لا تأكل إلا طيبا ولا تضع إلا طيبا. رواه الطبراني في الأوسط وفيه حجاج بن نصير وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد - (ج ١٠ / ص ٢٩٥)

[٣] [نوح/١٤]

الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق والتفلت من شرك البلاء بعد ذلك الاعتبار والالتجاء وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد ان الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى نبيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ويرده الوحي المحكم المتواتر...[١]

وعقب السيد رشيد رضا على ما ذهب إليه الأستاذ الإمام بقوله

وأقول الآن: إن توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى، لا بمجرد تدبر العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر إلى آخر ما قاله شيخنا هنا تبعاً لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين[٢]

ولو وقف عند هذا الحد لقلنا إنه غير متابع لشيخه في القول بالقصص التمثيلي، لولا ذهابه إلى القول بالتمثيل في قوله ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ.... ﴾[٣] فقد ختم الكلام عن هذه القصة بقوله : ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل.[٤]

فبرهن بكلامه على متابعته لشيخه وأستاذه فيما ذهب إليه.

ذلكم ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في تأويل قصة آدم في الجنة ومنه ندرك أن الإمام لم يصرح بما صرح به خلف الله من أن قصص القرآن منافية للواقع مخالفة للحقيقة، وهو لا

---

[١] تفسير المنار ١/٢٨٠-٢٨٤، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ١/٤٥٤-٤٥٦ط الثانية بالرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

[٢] تفسير المنار ١/٢٨٤

[٣] [البقرة/٢٥٩]

[٤] تفسير المنار ٣/٥٢

شك وافقه في حمل القصة على غير ظاهر ألفاظها إلى معنى أو معان أخرى لا يدل عليها ظاهر الكلام ومن غير مسوغ لذلك.

وهو مذهب لم يذهب إليه الشيخ محمد عبده في هذه القصة فحسب بل هو منهج سار عليه وبعض تلاميذه في معظم قصص وأخبار القرآن الكريم، ففي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[1] قال:

إن هذا مثل لا قصة واقعة.

وتابعه تلميذه بقوله: ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية، إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلوماً حتى كأنه مرئي بالعين[2]

وأرى أنني بحاجة إلى أن أختم الكلام عن هذه النقطة بما قاله الشيخ شلتوت رحمه الله عن هذا المسلك في دراسة القصص القرآني، فلشهادته قيمة علمية لا يستهان بها في هذا المقام؛ فهو من رجال هذه المدرسة العقلية، وأحد تلامذة الأستاذ الإمام.

قال رحمه الله عن منهج المؤولين في القصص القرآني: هو صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هذا التأويل، وصاحبه قد يُحَكِّم فيه مجرد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعاً لما يثيره خصوم القرآن على القرآن ــ وهو نفس ما ذهب الأستاذ الإمام وتلميذه رشيد رضا ــ ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة، وتأويل الكواكب في قصة إبراهيم بأنها جواهر نورانية نورها عقلي لا حسى...

---

(1) [البقرة/٢٤٣]

(2) تفسير المنار٢/٤٥٧

ثم ربط الشيخ رحمه الله بين هذا المنهج وبين طريقة الباطنية في تفسير القرآن بقوله: وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم وصرفوه بها عن دلالته العربية، وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذى يزعمه المؤول مدلولا للكلام.(١)

وقال عن حوار المائدة : بقى أن جماعة من متفلسفة هذا العصر حاولوا أن يعيدوا بعض آراء قوم حكموا عقولهم فيما قصه الله فقالوا : إن مثل هذا القصص لا يلزم أن يكون صادقاً يحكى واقعاً صحيحاً، وإنما يجوز أن يكون القرآن جارى فيه معلومات عامة اشتهرت على تعاقب العصور من غير أن يكون لها أصل كوني، وإن القرآن حدث القوم بما يتناقل من معارف مأثورة وإن لم يكن لها واقع صحيح، قالوا ومن الجائز أن يكون القرآن هو الذى وضعها ابتداء بقصد التخييل لغرض صحيح، وهو التأثير على القوم في سبيل اعتناق الحق الذى يدعون إليه، وعليه يكون سؤال الحواريين افتراضا وتخييلا وإجابة عيسى لهم افتراضا وتخييلا وإجابة الله لهم على النحو الذى أجاب به افتراضا وتخييلا، وكل ما تضمنته هذه الآيات من نسب هي حكايات عن مفروض متخيل لا واقع له تنطبق عليه وإنما هي تخييل في تخييل واختراع في اختراع ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾"(٢)

فساد هذا الرأي

انتهى الشيخ شلتوت رحمه الله إلى فساد هذا القول ومنافاته لقدسية القرآن بقوله:

وهذه آراء فضلا عما لها من نتائج سيئة تذهب بقدسية القرآن من النفوس، وتزيل عنه روعة الحق، وتزلزل قضاياه في كل ما تناوله من حقائق وتشريع، وأخبار ماضية، وأحوال مستقبلة، وتفتح لكل إنسان أن يقول في كل هذا : ليس له مدلول ولا واقع يدل عليه، وإنما هو إما مجاراة لخطأ أو تخييل سيق لمجرد بعث الرغبة أو الرهبة أو العظة،

(١) تفسير القرآن الكريم فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت ص ٥٣

(٢) [الكهف/٥]

وتقويم النفوس وإصلاح المجتمعات،ولا يلزم أن يكون لما سيق لهذا الغرض واقع صحيح ينطبق عليه.

هذه الآراء فضلا عما لها من تلك النتائج السيئة هي فاسدة في ذاتها؛ لأن القرآن عربي نزل بلغة العرب، وقانون اللغة المتواترة يقضى بحمل الكلام على ظاهره، وما تدل عليه ألفاظه من المعاني المعروفة لها عند المخاطبين، ما لم يمنع من ذلك الحمل مانع، فيصار تحت ضغط هذا المانع إلى التأويل كالمتشابه، أو التخييل كما في رءوس الشياطين، وكما في ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1] وعندئذ فقط يصرف الكلام عن ظاهره.[2]

المطلب الثالث: الالتزام بالصدق والحمل على الاعتقاد بالجزئيات

من أخطر ما ذكره الإمام قوله عن القصص القرآني أنه لا يلتزم الصدق في المنقول، بمعنى أن ورود الأمر في القرآن لا يعنى وقوعه بالفعل فربما كان الباعث على إيراده أخذ العبرة والعظة فقط.

قال رحمه الله وهو يتكلم عن السحر وحقيقته: ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضي أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا!

فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه، كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النفي لا يستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن، ولو لم يكن ذكرها في سياق النفي.

(قال الأستاذ الإمام ما مثاله) بيَّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز

(١) [فصلت/١١]

(٢) تفسير القرآن الكريم ١/٢٨٣-٢٨٤

موطن الهداية، ولابد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح.

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ "[1] وكقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾[2]

وهذا الأسلوب مألوف؛ فإننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء، ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية.

ويقول أهل السواحل: غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء، ولا يعتقدون ذلك وإنما يعبرون به عن المرئي.[3]

وهذا الكلام يجعلنا نقول: إنه ليس هناك فارق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف الله؛ فإن رأى الشيخ في قصص القرآن أنها : تمثيل وتخييل وهى للعظة والهداية، ورأى خلف الله أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهى للعظة والهداية فهما متفقان على الشطر الثاني، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظها غير مراد وأنها غير واقعة، عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخييل وعبر الثاني عنه بالاختلاق...

ولنكرر عبارات الأستاذ الإمام وتلميذه مرة أخرى:

قال السيد رشيد: ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة، بل يصح مثله في القصص التمثيلية

ويقول: وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع.

ويقول في إحدى القصص: ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل

---

(١) [البقرة/٢٧٥]
(٢) [الكهف/٩٠]
(٣) المنار١/ ٣٩٩-

ويقول أخيراً: قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر. [١]

ويقول شيخه: بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين[٢]

ومن هنا ندرك عمق الصلة بين الفكرتين فكرة خلف الله وفكرة الأستاذ الإمام وتلاميذه في قصص القرآن الكريم حتى قال الشيخ مصطفي صبري رحمه الله تعالى عن رسالة خلف الله تلك : وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده كلها ناشئة من الأسس التى ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام، فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين.[٣]

ويتضح لنا أيضاً حرص أمين الخولي المشرف على الرسالة المنحرفة على التصريح بأن جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة المنحرفة هذه ترفض اليوم ما ان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عاماً [٤]

وحُقّ لتوفيق التحكيم أن يسارع إلى التعليق على هذا الكلام بقوله: إنني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها تلك هي قوله أن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاماً إذا كان هذا القول صحيحاً كما يؤكد الأستاذ الخولي فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه، وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف [٥]

إذن فقد ثبت أن هناك علاقة وثقي بين ما تقدم به طالب رسالة الفن القصصي وبين ما تردد في تفسير الإمام.

---

(١) تفسير المنار٢/٤٥٧ ـ و٧/٤ ـ و٥٢/٣ ـ و٣٤٧/١

[٢] السابق: ١/ ٣٩٩

[٣] موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين مصطفي صبري ١/٣٤٥-٣٤٦ ط دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ط الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

[٤] مقدمة الفن القصصي في القرآن ص ج، منهج المدرسة العقلية ٧٤٣/١

[٥] منهج المدرسة العقلية ٧٤٣/١

خاتمة البحث

نثبت في نهاية المطاف أهم ما توصل إليه البحث من نتائج:

*** ليس من الحرية في شيء التجرد من القيود الدينية والثوابت القرآنية، والجرأة على النص القرآني وتقرير ما يراه العقل والفكر.

*** لا يعاب باحث خرج على الناس من خلال بحثه برأي جديد مادام رأيه هذا قد بني على قواعد واضحة وبراهين مؤيدة، ولم يصادم في ذلك نقلا صحيحا ولا عقلا سليما.

أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك؛ فلا قيمة للقول مهما كانت درجة صاحبه من الشهرة وذيوع الصيت ؛ إذ الحق لا يعرف بالرجال وإنما يعرف الرجال بالحق.

***ومما لا شك فيه أن الذين أكثروا من نقل هذه الإسرائيليات وغيرها من الأخبار في القصص القرآني وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح.

ليتنا نجد من بين علمائنا من يقوم بتجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات والروايات التي لا نصيب لها من الصحة وخاصة فيما يتعلق بقصص القرآن وإعادة طباعتها من جديد ليتسنى للناظر في كتاب الله تعالى أن يفهم القرآن بعيداً عن الخيالات والأوهام.

أهم المراجع والمصادر

القرآن الكريم. جلّ من أنزله.

الأعلام للزر كلي ط دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠.

البداية والنهاية لابن كثير ط دار الفكر ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار للأستاذ الإمام محمد عبده ط دار المنار ط الثانية ١٣٦٦هـ ـ١٩٤٧م

تفسير القرآن الكريم الشيخ محمود شلتوت طبع ونشر دار القلم بالقاهرة.

تفسير سورة الفاتحة وجزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ٢٠٠٧م تقديم د/ مصطفي لبيب عبد الغنى.

حياة محمد د/ محمد حسين هيكل طبعة خاصة بمهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م.

شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للزرقاني ط دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م

الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية لأبى بكر عبد الرازق ط المكتب الثقافي للنشر والتوزيع بالقاهرة ط الأولى ١٩٩٠م

طوالع البعثة المحمدية أو مطلع النور عباس العقاد ط الأولى ١٩٧٤م ط دار الكتاب اللبناني المجلد السابع الإسلاميات من المجموعة الكاملة

الكامل في التاريخ. عز الدين ابن الأثير ٤٠٢ وما بعدها، ط دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م المواهب اللدنية القسطلاني

مجلة الرسالة تحقيق أحمد حسن الزيات العدد رقم ٧٤٩ لسنة ١٩٤٧م السنة الخامسة عشرة

مجلة مجمع اللغة العربية الجزء التاسع والعشرون صفر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م

مجمع الزوائد للهيثمي ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨ م

منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ط الثانية بالرياض ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين مصطفي صبري ط دار إحياء التراث العربي.